«أسْرَلة» الجغرافيا العربية لفلسطين

د. غازي فلاح

نستعمل، أحياناً، في كتابتنا الجغرافية مصطلحي de-Arabization (طمس المعالم العربية) و Judaization (تهويد)، وذلك للتدليل على السياسات والممارسات الصهيونية التي تنتهجها السلطات الاسرائيلية لتحويل فلسطين، أو أجزاء منها، الى مناطق استيطان يهودي مكثّف، إمّا من طريق التفريغ الجسماني للسكان العرب من هذه المناطق، أو من طريق غلق هذه المناطق ومنع العرب من استعمالها فعلياً، أو حتى من طريق زيادة استيطان يهودي. وفي الوقت عينه، تقوم السلطات الاسرائيلية بمحو الملامح العربية والحضارية لهذه المناطق، واستبدالها باستعمالات وملامح يهودية جديدة؛ وتستمر في هذه العمليات حتى تطمس الهوية العربية الأصلية للمنطقة.

تهدف هذه الدراسة الى الاشارة الى نوع آخر من محاولات طمس الهوية العربية لفلسطين، ليس من خلال جغرافيا التراب الفلسطيني، بل من خلال الكتابات الجغرافية الاسرائيلية الخاصة بفلسطين. وبودّي، هنا، ان استعمل مصطلح «أسْرَلة» (Israelization) للتدليل على النهج المميّز والانتقائي للكاتب الجغرافي الاسرائيلي؛ ولا يختلف هذا المصطلح، بروحه ومفهومه، عن مصطلحي de-Arabization و Judaization المذكورين أعلاه.

تدور هذه الدراسة حول سؤالين محوريين: الاول، لماذا اختار الباحث الجغرافي الاسرائيلي موضوعات معيّنة عند درسه لجغرافيا البلاد البشرية، وكيف تتداخل موضوعات الجغرافيا العربية للبلاد في هذه الدراسات؟ الثاني، ماذا يسأل الجغرافي الاسرائيلي، عندما يبحث في الجغرافيا العربية لفلسطين، وكيف يختار المقاييس والمصادر كي يجيب عن أسئلته؟

يرتبط هذان السؤالان ببعضهما البعض ارتباطاً عضوياً، ويشكّلان القاعدة المفاهيمية للفكر الجغرافي الاسرائيلي الخاص بجغرافية فلسطين البشرية.

لعل أفضل مدخل لمناقشة موضوع «أسْرَلة» الملامح الجغرافية العربية لبلادنا فلسطين، وما يتبعه من محاولات طمس الهوية الجغرافية العربية للبلاد من قبل مجموعة الجغرافيين الاسرائيليين، هو ما قُدّم من أوراق عمل في أثناء انعقاد مؤتمر الجغرافيين العالمي الثالث والعشرين، في الاتحاد السوفياتي، في صيف العام ١٩٧٦، حيث وُضِعَت العشرون ورقة عمل في كتاب واحد يحمل عنوان «الجغرافيا في اسرائيل» (١٩٧٦)؛ ويقع هذا الكتاب في ٣٩٦ صفحة، بالاضافة الى ١٦ صفحة أخرى تحمل مناظر جغرافية مختلفة، وضعت في آخره.

ان تدقيقاً سريعاً وعابراً في عناوين المناظر المرفقة قد يغني عن قراءة كل الكتاب؛ بل ويكفي لرسم خارطة ذهنية مميّزة للبلاد كما رسمها الجغرافيون الاسرائيليون، حيث يتضح من هذه الصور